دراسة الأسطورة في الأدب المقارن:

تعبر كلمة الأسطورة في العام على شكل من أشكال التراث الشعبي، المتوارث منذ غابر الأزمنة، والمنتقلة عبر القرون الطويلة شفاهاً أو عبر نقوش خلفتها الحضارات الراحلة، لكنها استمرت في الحياة محملة بمعانيها؛ المعبرة عن هواجس وثقافة المؤمنين بها، تطورت المقاربات الدراسة للأسطورة عبر الزمن، خاصة مع بداية القرن العشرين، فقد تلقفها الدارسون على اختلاف مذاهبهم درسا وبحثا وتحليلا، وكان للدرس المقارن باع في دراسة الأساطير لكن وفق ما يقتضيه منهجية المقارنة.

1-مفهوم الأسطورة:

أ-لغة:

الأسطورة وجمعها أساطير، وردت في القرآن الكريم في مواضع عدة، وحملت معنى الأباطيل، جاء في سورة الأنعام: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[1]، أي ما سطره السابقون، وقد قالها كفار قريش، وقيل النّضر بن الحارث، قاصدين إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، بقولهم: أنّ القرآن الكريم إنّما هو عبارة عن أساطير كتبها محمد أو اختلقها، ولم يحد المعنى عن دلالات الباطل والتلفيق.
وجاء في النمل: ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[2]، فمعنى الأسطورة في القرآن هي القصص الملفقة والخيالية والكاذبة، وقد ذكرت في سبعة مواضع أخرى، ولم تذكر إلا في صيغة الجمع.

1-سورة الأنعام(الآية 25).
2- سورة النمل (الآية 68).

أما عند الغربيين فالأسطورة لغة:« **(Mythe)المشتقة من الكلمة اللاتينية (Mythus)أو الكلمة الإغريقية(Mythos) ، وتعني عند القدماء، حكاية شعبية أو خرافية أنتجها الإنسان وتداولها للإجابة عن تساؤلات طرحها على نفسه نتيجة تفاعله مع ظواهر الكون أو الطبيعة أو قصد تنظيم حياته**»[1]، فهي حكاية خرافية من إنتاج الإنسان ذاته، مبرر إنتاجها هو تفسير الغموض الذي يحيط به وبعالمه الكبير، من ظواهر طبيعية وكونية محيرة لعقله البدائي كالموت والحياة والمطر والصحو والجبال والبحار، لهذا وصفت الأسطورة بأنها علو الإنسان الأول، فهي تفسر عالمه وتجيب على هواجسه، وتنظم حياته.

ب- اصطلاحا:

حاول الكثير من المشتغلين في مجالات الفلكلور والثقافة الشعبية، وحتى علماء النفس والاجتماع، ودارسو الأدب المقارن، تعريف "الأسطورة" علميا، كل حسب فلسفته، وقد عرفها المختصون في التراث والفلكلور بـ:« **تدل على تاريخ حقيقي، بالاضافة إلى أنها كانت نموذجا يحتدى به، وقصة حافلة بالمعنى، ينظر إليها بأعلى درجات الاعتبار لما تتصف به من قدسية**»[2]، ولا يبالغ مرسيا إلياد في قوله"تاريخ حقيقي"، فهي حقيقية وصحيحة بمقاييس الزمن الذي أنتجت فيه، كما أنها خرافية بالنظر إلى التطور العقلي والزمني والعقلي؛ الذي درست فيه الأسطورة، لكنها مقدسة عند منتجيها فهي دينهم.

ويعرفها علماء الاجتماع والسياسة بأنها:« **قناعة جماعية حيوية رمزية وشاملة، تبدو في شكل صورة، كانت عند البدائيين ومازالت حتى يومنا هذا عاملا أساسيا في الانسجام الاجتماعي**»[3]، فالأسطورة عامل توحيد للمجموعة الإنسانية المؤمنة بها، وتنظيم أحوالها خاصة منها الأساطير التي تهدف إلى الردع عن تصرفات معينة، أو إلى ترسيخ سلوك ما.

1-حنون(عبد المجيد):في الأسطورة والأدب العربي، دار ميم للنشر الجزائر ط1، 2019، ص16.
2-إلياد(مرسيا): مظاهر الأسطورة، تر:خياطة(نهاد)، دار كنعان للدراسات والنشر دمشق سوريا، ط1، 1990، ص5.
3- حنون(عبد المجيد):في الأسطورة والأدب العربي، ص 17.

أما علماء النفس خاصة يونغ Yung فيعرفونها بـ:« **صورة تجسد رغبات الفرد أو الجماعة عن طريق الإسقاط الذي يتجسد في شعار أو في مثل أعلى تشترك فيه الجماعة**»[1]، خاصة إذا تعلق الأمر بما لا يستطيع الإنسان البوح به كالرغبات المحرمة في جماعة ما.

وحتى نكمل التعريف السابق، يأتي الدارسون والباحثون ليدلوا بدلوهم :« **الأسطورة في معناها العام قصة، لكن هذه القصة ارتبطت بالآلهة والأبطال، تعود بداياتها إلى الزمن البدائي، زمن سابق للزمن**»[2]، وهكذا ظهر أن الأسطورة تحتكم إلى قواعد السرد فهي "قصة" تحكي حدثا ما؟ شخصياتها من الآلهة وأنصاف الآلهة ومن الأشخاص الخارقون"الأبطال"، أما زمنها فهو قديم جدا، بدائي، حتى قبل أن يدرك الإنسان معنى الزمن.

وبحثا عن تعريف شامل ودقيق للأسطورة جاء التعريف الموالي: «**نشاط فكري ثقافي مارسه الإنسان منذ القدم[.....]تجمع بين حكاية البدايات والمعتقدات المعرفة وتبرير العادات والتقاليد والممارسات، تتجلى في قالب شفوي رمزي إلا أنها تختلف عن بقية الأنماط السردية الرمزية من حيث آليات السرد وشروطه وظروفه، ثم من حيث طابعها القدسي بصفة خاصة**»[3]، فهي ناتجة عن تفكير وبحث مارسه الناس قديما، بعد أن حيرته الأسئلة، كما أنها مرتبطة بمعتقداتهم كذلك؛ أليست هي دينهم الأول، فكل أبطال الأساطير معبودين عند الإنسان البدائي، بنى لها المعابد وجعل لها مواسم وأعياد، وهي رغم خرافيتها تحمل رموزا، تعبر عن تفكير الإنسان .

ج-خصائصها:

تملك الأسطورة كأي شكل أدبي شفوي مجموعة من الخصائص تجمل في ما يلي:

1- المرجع السابق، ص 17.
2-عليوي(سامية): تجليات شهرزاد في الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية أسطورية، دار ميم للنشر والتوزيع الجزائر، 2018، ص 26.
3- حنون(عبد المجيد):في الأسطورة والأدب العربي، 17.

أولا: مقدسة؛ فهي يقينية عند منتجيها، يصل إيمانهم بها إلى القدسية وهكذا قيل عنها: «**كما سريا أقره العرف، وعبر في بدايته، على الأقل عن ظهور المقدس والخارق** »[1]، وهكذا توارث الأبناء هذه القدسية عن آبائهم ولم تفقدها إلا في العصر الحديث.

ثانيا:دينية، فالأساطير هي ديانات الإنسان البدائي، فقد ربطها:«**بيير ألبوي Pierre Albouy كلمة أسطورة للحقل الديني والشعائري الذي كان مصدرا لها في الأساس**»[2]، ارتبطت قصصها بأناشيد شكلت الجانب القولي من الشعائر الدينية، وبقية هذه الأناشيد مصدر الأساطير المنتقلة من جيل إلى جيل، لها وظيفة دينية.

ثالثا:شفوية، وهذا ما ما منعها من المحافظة على شكلها الأولي ومضمونها، وهذا ما أقره بيرنال وبشوا وروسوا: «**الأسطورة الأصلية لا ثبات لها ولا استقرار، شكلا ومضمونا**»[3]، كما أنها مشتركة شعبية مؤلفها هو الجماعة، وليس فردا معينا.

رابعا: مرتبطة بالظواهر الطبيعية، وتعبر عن تفسير لكل الغموض الذي يحير الإنسان فيما يخص نشأة الكون أو حصول الظواهر الطبيعة، فهي تعبر عن قضايا مهمة وشاملة بالنسبة للمؤمن بها.

خامسا: قصة سردية، تتوفر على كل شروط القصة الفنية.

سادسا: الأسطورة رمزية في معانيها، فقد تحمل معاني فلسفية، أو اجتماعية أو عاطفية.

2-الأسطورة الأدبية:

نجد عند حديثنا عن أسطورة أدبية، أن هذا المركب الهجين يتكون من اصطلاحين: أسطورة + أدب، ورغم الاختلافات الواضحة للعيان بينهما وهي: كون الأسطورة شفوية والأدب مكتوب، هي مجهولة المؤلف وهو مؤلفه معلوم، للأسطورة وظائف تشريعية ودينية واجتماعية، أما الأدب فله وظيفة

1-برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 212.
2- المرجع نفسه، ص 212.
3-- المرجع نفسه، ص 213.

جمالية. إلا أنهما يتقاطعان في عدة أمور: كلاهما تعبير لغوي ويتقاطع الاثنان في اهتمامهما بالإنسان وتمحورهما حوله، كما يتقاطعان في استخدامهما للسرد، ليس السرد أسلوب أدبي؟ ثم أنهما بعد ذلك خياليان.

وتصبح الأسطورة موضوعا إذا اندمجت في نصوصه، وهو الانسجام الذي سمي بـ"الأسطورة الأدبيةMythe Littéraire، ولا تتحول إلا النص الأدبي :« **الأسطورة لا تتحول إلى الأدب إلا إذا تدنست أي بعد أول تشويه لها**»[1]، أي أن الأسطورة تتعرض لعدة تغييرات في رحلة تحولها إلى **"أدبية"**، إذ لا يمكن أن تبقى محافظة على قدسيتها عند تطويعها لأغراض الكاتب الواحد، وقوانين الجنس الأدبي المحدد، وبعد تغير الزمن بعد أن كان بدائيا ليصبح سرديا ومعاصرا، وتتوقف القدرة الابداعية للكاتب عند تطويعه للأسطورة الأولية مع الغرض الأدبي المرجو، ثم:« **ستتبع تشوهات أسطورة أو وجه أسطوري في لآداب مختلفة**»[2]، فهي عند كل أديب تلبس ثوبا وفي كل أدب تتعرض لتشوهات تقربها من الأدب أكثر فأكثر، وفي انتقال الأسطورة من أدب إلى أدب آخر تبادل أدبي وتأثير وتأثر ورحلة آخر للأسطورة الأدبية التي لاقت الكثير من الاهتمام عند المقارنين.

ومن خصائص الأسطورة الأدبية أنها خيالية وهمية كالأسطورة الأولية، ورمزية تخضع للتأويل والنقد:« **من الممكن أن تشحن الأسطورة خلال مرحلة متقدمة من تطورها بمعنى مجرد: مثل "بروميثيوس الذي أصبح رمزا للثورة وسيزيف الذي أصبح رمزا للعبث**»[3]، فالكاتب في استحضاره للأسطورة يكيفها مع غرضه الرمزي الحديث وهذا ما يجعله يعرضها لتشوهات شكلية ومضمونية تتوافق مع فردية الإبداع الأدبي.

ثم إن الأسطورة الأدبية بعد ذلك: «**حبيسة الزمان الأدبي مكانه. فالكاتب يستخدم الكم السردي التقليدي، غير أنه يعالجه ويحوره بحرية كبيرة، إلى درجة أنه يسمح لنفسه بإضافات**

1--برونيل(بيير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 212.
2- المرجع نفسه، ص 213.
3- المرجع نفسه، ص 212.

دلالية جديدة»[1]، محصورة في هيكل فني واضح شعري أو سردي أو مسرحي، وهذا التغيير من الشكل الأولي الشفوي أو الشعري يسمح للمؤلف الجديد للأسطورة الأدبية بالابتكار في الأوضاع والدلالات، فلا يمكن أن تبقى محافظة على نفس الدلالات الأولية القدسية.

3- دراسة الأساطير في الأدب المقارن:

حازت الأسطورة اهتمام المشتغلين بالحقل المقارن منذ بداية الفرن العشرين، حيث سمي مقارنا:« **خلال النصف الثاني من القرن العشرين ذلك العالم المتخصص في الدراسة المقارنة للديانات والأساطير مثل ماكس موللر وصالومون ريناخ، وميرزا إلياد في عصرنا»**[2]، فالأسطورة كانت من أولى المجالات التي غذت الأدب المقارن، حيث عمل المقارنون على البحث في التغييرات التي حصلت للأسطورة الأولية في انتقالها من الشفوية إلى التدوين، وفي رحلتها بين الشعوب، ثم عند تحولها إلى" أسطورة أدبية"، فيدرس الأسطورة ومدى تهمشها وتشويهها مقارنة إياها بالأصل الأول.

واعتبر فان تيغم وهو واحد من أوائل المقارنين الفرنسيين الأساطير:« **ميدان الأساطير والشخصيات الأسطورية من أهم ميادين الدراسة عند المهتمين بدراسة الموضوعات»**[3]، وهو من أخصب الميادين المرتبطة بالأدب المقارن، حتى ظهر مختصون في هذا المجال فيما بعد أمثال: بيير برونيل صاحب "معجم الأساطير الأدبية"Dictionnaire des Mythes Littéraires ، وتروسونTrousson وبيشواPichois وروسوRosseau، وهذا ما أدى إلى إفراز ما يسمى بالنقد الأسطوريMythocritique، وهو طريقة خاصة في مقاربة النصوص الحاوية لأساطير أدبية، أي إجراءات في الكشف عن طريقة تشكل الأسطورة داخل النص الأدبي.

(تمت أ.حميدة سليوة)

1- برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 219.
2- المرجع نفسه، ص 213.
3- حنون(عبد المجيد):في الأسطورة والأدب العربي، 35.